

نظرات في النفس والحياة

- ٢١ -

تتمة نظرات جونا

(١٢) أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث فيها الانسان سواء أ كان ذلك في الحياة أو في الأدب أو في العلم ، فإذا لم يجد الانسان صعوبات فليس معنى ذلك انها غير موجودة (١٣) لو كان من المستطاع انظار الوقت، وخرن الزمن كما يندخر المال، وكما يخرن الذهب، لحين الحاجة الى صرفه وبذله في عمل ما، لكان لنوي الكسل بعض العذر في عدم صرف وقته في العمل المنتج . ولكن حتى لو كان خزن الزمن وانظاره مستطاعا ليصرفه صاحبه عند الحاجة، لكان هذا أيضا من ضعف رأي صاحبه ، إذ يكون كمن يصرّف من رأس ماله المدخر بدل الصرف بما يريح بالعمل . والذي يصرّف من رأس ماله لا من ربحه، يوشك أن يفسد (١٤) قيمة كل أمر في الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتنقيتها . ولعل في هذا بعض ما في قول هازليت : ان الانسان إذا نعى أن يكون إنساناً آخر فهو في الحقيقة لا يتنى إلا "أمرراً" تكسل شخصيته الخاصة ، كأن يتنى ذكاه هذا، أو ثروة ذلك، أو سعادة آخر . إذ لو تخلّى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته واحاسانه وأفكاره لصار إنساناً آخر، فلا يفيد تحقيق ما يشاء بل يفيد هذا الشخص الآخر . وإذا لو خيّر أقرصعك وطبيب منه أن يتخلى عن نفسه، وإن يكون ملكاً أو ثرياً أو طالباً ما تصور إلا أن يتالملك الأول، أو ثروة الثاني، أو علم الآخر، على شرط أن تبقى له نفسه . وهذا مصداق قول الاسكندر المقدوني : لو لم أكن لاسكندر لتمتعت أن أكون ديوجينز (أي الفيلسوف المعروف) .

(١٥) مهما حاول الانسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة للممتازة، فإن في جودتها صفات لا تفسر : إذ تجعل عن التفسير وهذا يذكرني أحد أصحاب الفن الذي كان مولماً بالنظر الى صورة مونا ليزا التي عنوانها المسرورة (لاجيوكوندا) . فلما كتب والتر باتر وأطان في وصف أسباب جودتها وابتعائها لسروره، قال صاحب الفن : إن أقوال والتر باتر عن هذه الصورة إنما هي من أدب الخيال وقصصه، أي ليست أسباباً حقيقية .

(١٦) إنه أمر مُسخرَجٌ حَقًّا أن يمدح الرجل الممتاز، وأن يعجب به الحقي والاعبية. وكأن جوتا ينظر الى عكس قول المتنبي أو ال ما بكل معنى بيته : —

وإذا أتتكَ مَدْمَتِي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كامل

وإذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحاً سرياً، وربما يخيل للسامع ان المدح ناقص مثلهم . وهذا يتفق أن يكون ، وقد لا يكون، دليلاً ولكنه مخرج كما قال جوتا.

(١٧) كلما كبر الانسان ازداد تسامحاً اذا لم ينس أخطائه وأغلاطه في ماضي حياته ، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به في تلك الأخطاء والأغلاط . وهذا شرط قلما يستقيم إذ ان نفس المرء كثيراً ما تدعوه الى نسيان أغلاطها وأخطائها، والى نسيان تسامحها مع نفسه ، بل انه كثيراً ما يحب انه يكفر عن تسامحها مع نفسه في ذنوبها بالتعبد والتمنق مع الناس اذا وقعوا في مثلها، الآ اذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظن به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم .

(١٨) ان صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع في فنه ، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه ، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره . والواقع ان صاحب الفن قد يكون غافلاً عن جودة صنعه حتى انه قد يفضل من صنعه أقلهما جودة فيحكم له بأنه ممتاز مما هو أحق بالتفضيل .

(١٩) في كل المقاصد والأفراض الانسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التكبير النظري أخلّ بالنفس والحياة ، إذ أن كلاً منهما متمم ومصحح لآخره .

(٢٠) عند ما علم بعض الترفييين أن ميرابو الخطيب كان مديناً الى حد كبير في خطبه للعامة التي جمعها له دو مونت، ظنوا ان هذا أمر ينقص من قدر ميرابو . وقد قال جوتا : كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن ميرابويز رب القورة عند الأغريرق كان يستطيع أن يستغنى عن الغذاء، وما كان يستغنى في تلك الحرفات عنه ليظهر قوته، وكذلك المبقرى إنما كان عبثياً لتقدرته على الامساك بالأمور يميناً ويساراً، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقرته وعلى اعطائها حياة خاصة من له وإحساسه . وقال جوته أيضاً : ان ابتكار المبقرى إنما يكون بذكريات مؤلفة تأليفاً فنياً ومنسقة تنسيقاً مدعماً .

وقد ألمّ أبو الملاء المرمرى بهذه المعاني وأبدع في باب التشبيه كل الابداع في قوله:

والنحل يجني المرء من نور الرب فيسير شهداً في طريق روضابه

أي انه يجني من الزهر ويعطي بدل ما جنى روضاب النحل ، وكذلك المبقرى .

(٢١) من الصعب أن يظل المرء منفرداً عن المذاهب والجماعات لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى في حين إخفاقة وحيثه بمجد الاطمئنان والسكينة والأمان . ويزداد المرء رغبة في الخير إذا اتصل بجماعة ترغب في الخير، كما يشجع على عمل الشر إذا كان في طائفة ترغب في الشر . وقول جوتا يذكر في كلمة لهازلية في صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب . قال : إنه تقتضاه لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل ، وحتى يتهم رأيه إذا أضحى عليه كل الناس بالخلاف ، وبمثل كأن الأرض زالت من تحت قدميه ، وظل معلقاً في الفضاء - والواقع أن من يدعي الاستقلال عن الأحزاب والجماعات يتصل بها في أمور كثيرة ، فليس هناك انفصال تام .

(٢٢) كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرع القليل الصبر الذي يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذي يقتضيه تسميرها، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوداء ينخدع بها من لا يجرب الأمور بنفسه، بل يعتمد على الروح الخزبية بين الجماعات .

(٢٣) عندما نقصد الضعف بشيء والرغبة فيه ، نقصد ذكره كما أن المرء لا يسمع ما لا يريد سماعه . وهذه نظرات سيكولوجية من جوتاهي أشبه بأقوال سيجموند فرويد .

(٢٤) لا يستطيع المرء أن يكتب ثقافة من غيره إلا إذا استطاع تثقيف نفسه .

(٢٥) إذا أخطأنا في المحسوسات، فليس الخطأ خطأ الحواس، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات، فإنها تحظى، إذا لم تعرف حدود الحواس، وطرق استخدامها استخداماً صحيحاً .

(٢٦) كثيراً ما يعتمد من يدافع عن الباطل بلطف وأدب، بينما يعترض من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق في نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب . لأن الأول يريد أن يكون باطلاً مقبولاً، فيدلف إلى الناس بمتهوى قلوبهم، والثاني قد يتخذ الحق الذي يدافع عنه بالإعزاز الذي ينأى به عن اللطف والأدب .

وفي الختام نقول أن في مؤلفات جوتا فكراً كثيراً يدعو إلى الفكر، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى وإن كان في أقوالهم بعض الحق .